السّياسة والسّياسيون في إيران

فاطمة الصمادي، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012؛ 392 ص.

يقدم كتاب الباحثة الدكتورة فاطمة الصمادي دراسة مستفيضة لخريطة وسياسات القوى والأحزاب السياسيّة في إيران بعد الثّورة الإسلاميّة في 1979، بجميع اتجاهاتها الفكريّة، وبمختلف تفريعاتها وانشقاقاتها اللاحقة. يدرس هذا الكتاب الأحزاب الإيرانيّة بيسارها ويمينها ووسطها، ورصدت التّحولات السياسيّة والفكريّة التي طرأت على هذه الأحزاب جراء التغيرات التي حدثت في المجتمع الإيراني نفسه.

يُعد هذا العمل من أهم المحاولات المعرفية لوضع القارئ العربي في صورة التجمعات السياسية الإيرانية ما بعد الثورة الإسلامية، والتي تعبّر عن نفسها في شكل تيارات تتعدى غالبا التقسيم التقليدي المعروف بين الأصوليين والإصلاحيين، وتعكس التطورات والتحولات التي شهدها المجتمع منذ ذلك الوقت.

يتناول الكتاب بالاستناد إلى المنهجية الوصفية والتحليلية، مختلف العوامل التي تتدخل في تكوين التيارات السياسية والحركات الاجتماعية في إيران، ويأتي في مقدمة عوامل نشوء الحركات الاجتماعية مستوى التحول والعبور من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، ومعدلات التحديث والتنمية الاقتصادية، وميزان دمقطرة المجتمع، الأمر الذي يؤثر بصورة واضحة في إيجاد وبناء مؤسسات الطبقات الدنيا وروابطها وجمعياتها.

الموزاييك الإيراني

وظفت الباحثة في هذا المشروع نظريات حسين بشيرية عالم الاجتماع والسياسة الإيراني الذي يرى أنه فيما يتعلق بالمجتمع الإيراني، فإن مجموعة من الفجوات التاريخية والإنشائية الهيكلية، صارت سببًا في تشكيل بنية القوى والتيارات الاجتماعية والسياسية المعقدة، ففي العهد البهلوي اتخذت هذه الفجوات الاجتماعية الطبقية شكلا جديدا، وساهم تشجيع رأي المال والتجارة والصناعة، في إيجاد تمايزات في البناء الرأسمالي، وبالتدريج أصبح كل من رأس المال الصناعي والتجاري والمالي متميزا عن الآخر.

قامت سياسة النظام البهلوي بتقسيم المجتمع الإيراني إلى قسمين، ووضعت

الطبقات والقوى التقليدية في مواجهة مع القوى الاجتماعية الجديدة، ليحدث الصدام بين قوى السوق التقليدية (بازار سنتي) ورجال الدين والعشائر من جهة، وبين القوى الاجتماعية الحديثة المدعومة من الشاه من جهة أخرى. لا تقتصر هذه الفجوات على الطبقات الاجتماعية، بل إنها تنسحب أيضا على الدين والدولة، وعلى المذاهب والطوائف، والأعراق والقوميات واللغة، خصوصا في مجتمع يقّسم عرقيا ولغويا إلى ست مجموعات: الناطقون بالفارسية (50٪)، الأذريون الترك (23٪)، الأكراد (11٪)، العرب (5٪)، البلوش (3٪)، التركمان (3٪).

هذه فواصل لا يمكن لأي دارس أن يتجاهلها عند دراسة ما شهدته إيران على مدى مراحل تاريخها المعاصر المتعدد، كما لا يمكن تجاهل الفجوة التي نشأت بين الثقافة والتمدن الإيراني والثقافة العربية الإسلامية.

جدل السياسة والاجتماع

قدم الكتاب تحليلا للنظرية السياسية الشيعية وما شكلته من أزمة بالنسبة لنظرية الحكم الملكي، ويبقى الجدل بين الملكية والإمارة والخلافة، قائما بصورة خفية وظاهرة. وظل الخلاف بين الخلفاء والعلماء، والفقهاء والسلاطين، مصدر فجوة سياسية فكرية مستمرة في التاريخ الإيراني الإسلامي. ومع بدء مرحلة التحديث في العهد البهلوي، اتسعت الفجوة بصورة غير مسبوقة بين رجال الدين بصفتهم الحارس للتقاليد الإسلامية، وبين الطبقة الحاكمة باعتبارها القائمة على التحديث السياسي والاجتماعي، الأمر الذي قاد أيضا إلى فجوة عميقة بين التوجه نحو الدين والتوجه نحو الدنيا. أما من الناحية السياسية الثقافية، فالمواجهة قائمة على الدوام بين القوى الأصولية والتقليدية من جهة والقوى الإصلاحية من جهة أخرى، وهذه المواجهة أحد تجليات الفجوات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

من ناحية أخرى، يرسم هذا العمل البحثي خريطة تفصيلية للتيارات السياسية الإيرانية، في ستة فصول، ففي الفصل الأول تناولت الباحثة العقد الأول من عمر الثورة الإيرانية، والصراعات والمواجهات التي شهدتها بين القوى الإسلامية المؤيدة للخميني وغيرها من القوى السياسية الماركسية والليبرالية والقومية، مع محاولة لتفسير كيفية نشوء تيارات اليمين واليسار في إيران الإسلامية. يجري التركيز على هذا العقد الأول للثورة لأنها أفرزت معطيات تؤثر في تشكيل الحياة السياسة في الجمهورية الإسلامية، ويتبع ذلك سرد تحليلي للخطاب السياسي السائد في إيران على مدى مراحل زمنية متعددة.

في الفصل الثاني، تقدم الباحثة صورة كلية تفصيلية للتيار الأصولي الإيراني: النشأة، والمبادئ، والمواقف والاتجاهات، وفي مقدمتها ولاية الفقيه ودور رجال الدين في الحياة السياسية والعلاقة بالغرب وأميركا. كما تقدم

الباحثة عرضا لأهم الأحزاب والجمعيات التابعة لهذا التيار، والدور الذي قامت به، وتبين موضوعات الخلاف وحالات الانقسام التي شهدها.

القوى الجديدة

أما الفصل الثالث، فتقدم الباحثة صورة كلية تفصيلية للتيار الإصلاحي: النشأة، وكيفية الانتقال من اليسار التقليدي إلى الحداثي، ثم التيار الإصلاحي وجبهة الثاني من خرداد (جبهة 23 يونيو/ حزيران) وترصد مواقفه على اختلاف مراحله التاريخية والتحولات التي طرأت عليها تجاه عدة قضايا، وفي مقدمها ولاية الفقيه والمشاركة السياسية والمجتمع المدني والعلاقة بأميركا، وتتناول أيضا دور حركة التنظير الفكري الإصلاحي وأثرها إيجابيا وسلبيا في العملية الإصلاحية ومستقبل التيار، والتركيز في هذا الجانب على «حلقة كيان» الفكرية، التي تجسد التيار الثوري الشبابي الذي دعا إلى التجديد بعد وفاة الإمام الخميني. كما يشتمل الباب على عرض لأهم الأحزاب والجمعيات التابعة لهذا التيار، والدور الذي قامت بعه، وتبين الدكتورة فاطمة الصمادي موضوعات الخلاف وحالات الانقسام التي شهدها التيار.

يتضمن الفصل الرابع محاولة تحليلية لما يعرف بـ«الحركة الخضراء» التي شهدتها إيران عقب الانتخابات الرئاسية العاشرة عام 2009 والتي جددت ولاية الرئيس محمود أحمدي نجاد، وتتطرق هذه المحاولة بداية إلى إشكالية التعريف، وعلاقتها بالدين، ومواقفها وعلاقتها بالنظام الإيراني. تطرح الباحثة فرضية أن الحركة الخضراء ليست امتدادا للحركة الإصلاحية الإيرانية، وترصد اختلاف الخطاب بين الرئيس الأسبق محمد خاتمي وخطاب زعيم الحركة مير حسين موسوي من خلال تحليل محتويات البيانات التي صدرت عن الحركة الخضراء، والشعارات التي رفعتها والأسباب التي قادت إلى تراجعها.

كما ترصد قراءة تحليلية مضادة تفسر الحركة الخضراء في إطار المخطط الخارجي، لدعم «ثورة مخملية»، والقيام بـ«إسقاط ناعم» للنظام الإيراني.

في الفصل الخامس، تسعى الباحثة إلى إثبات وجود تيار مستقل عن التيار الأصولي الإيراني، هو التيار النجادي، وتعرض نشأة هذا التيار وملامحه، من خلال التركيز على طريقة مجيء نجاد إلى كرسي الرئاسة وخلافه مع هاشمي رفسنجاني، وقضية العدالة الاجتماعية ومواجهة الفساد، والخطاب المهدوي، إذ يعتبر نجاد أن وظيفته تهيئة الأرضية لظهور الإمام «المهدي المنتظر». ويبحث هذا الفصل أيضا في العداء بين نجاد ورجال الدين، وخلافه مع التيار الأصولي بشأن السياسة الاقتصادية والعلاقة بأميركا، وأسباب دعم حرس الثورة لنجاد، والتحول الذي طرأ على الخطاب النجادي، من خطاب إسلامي الصبغة إلى خطاب قومي.

من ناحية تفصيلية، أولت المؤلفة اهتماما لدراسة التّيار الماركسي (حزب تودة) والتّيار اليساري الإسلامي (مجاهدو خلق) والتّيار الإسلامي (خط الإمام)، كنافذة للعبور إلى تحليل خطاب الثّورة الإسلاميّة باتجاهاته المتعددة، ولا سيّما التّيارين الأصولي والإصلاحي، ولعرض آراء هذه التّيارات في ولاية الفقيه والعلاقة بأميركا والمسائل الاقتصاديّة. علاوة على ذلك فقد تناولت المؤلفة الأحزاب الأخرى التي كان لها شأن في بعض المراحل كالحزب الجمهوري الإسلامي وجمعية رجال الدّين المناضلين، قبل أن تنتقل إلى معالجة ما سمي «خطاب التجديد» لدى جبهة المشاركة وكوادر البناء وحزب الخضر، وغير ذلك من الجماعات، مع إيلاء الاهتمام لمسألة الديمقراطيّة وموقعها في فكر هذه الأحزاب.

كذلك، قدّمت الكاتبة عرضًا توثيقيًّا لخطاب الرئيس محمود أحمدي نجاد في شأن قضايا المرأة والديمقراطيّة والعلاقة بالولايات المتحدة. وتساءلت: إذا ما كان الرئيس أحمدي نجاد أصوليا؟ وخلصت الباحثة إلى إن محمود أحمدي نجاد ليس أصوليًّا، على الرغم من مهدويته، لأنه تعرّض لهجوم الأصوليين بالمستوى نفسه من النقد الذي وجهه إليه الإصلاحيون. وتخلص إلى أن أحمدي نجاد قد كوّن تيارا سياسيا بملامح خاصة يمكن أن يطلق عليه تسمية «تيّار العدالة». وهذا التّيار لا يعير الديمقراطيّة اهتمامًا جديًا، ولا يروج للدولة الديمقراطيّة بل يدعو إلى الدولة الدينيّة كنموذج للحكم في مواجهة النموذج الغربي للدولة.

مسارات ومآلات

في الفصل السادس والأخير، تقدم الباحثة خمسة استخلاصات:

أولا، تفسير صعود الخميني وعلوه على كافة التيارات الإيرانية المعارضة لنظام بهلوي، الأمر الذي ساهم في تحدي خصائص وشكل نظام الجمهورية الإسلامية.

ثانيا، إن التيار الأصولي هو وليد تيار اليمين الإيراني، ويلتزم هذا التيار ولاية الفقيه المطلقة، ويؤمن بدور أكبر للدين في السياسة، وبدور في حده الأدنى لتدخل الدولة في الاقتصاد، والتحول الذي شهده هذا التيار مع وفاة الخميني، ويكمن في الاستعداد للتحاور مع الولايات المتحدة. أما تيار الإصلاحيين فقد غاب عن المشهد السياسي الإيراني وذلك بفعل سياسة الإقصاء، والفشل في وضع خطاب إصلاحي موحد.

ثالثا، ترى الباحثة أن الحركة الخضراء في إيران والتيار النجادي يأتيان خارج تصنيف اليمين واليسار، وكذلك خارج الأصولية والإصلاحية، والحركة الخضراء كما التيار النجادي يستند إلى قاعدة شبابية قوية. وتسعى النجادية إلى حكومة خالية من رجال الدين وتأثيرهم، ويلاحظ التحول في خطاب نجاد خلال فترة رئاسته الثانية في خضم المواجهة مع

الولايات المتحدة بالعودة إلى الخطاب القومي الإيراني وتوظيف التاريخ والحضارة الفارسية في فترة ما قبل الإسلام بصورة أغضبت رجال الدين.

رابعا، إن الجدل بشأن ولاية الفقيه رافق الثورة الإيرانية منذ بدايتها، وأن التيار الإصلاحي يرى في الخميني وليا فقيها وليس في من سيخلفه، وأن هناك اتجاهات داخل إيران يمثلها «المستنيرون»، وتدعو إلى فصل الدين عن السياسية.

خامسا، إن المشهد الحزبي في إيران بصورة عامة اتسم بالضعف والانقسام، مما جعل الأحزاب السياسية تفقد مصداقيتها بالنسبة لعامة الناس، وكذلك لعدم قدرة أي منها على إيجاد التغيير الاجتماعي المنشود. كما أن المجتمع الإيراني منقسم بين الاتجاه المطالب بالديمقراطية والتعددية واتجاه متمسك بالأحادية والتبعية في سبيل تحقيق الاستقرار.

يمثل هذا الكتاب إضافة هامة ونوعية في مجال الدراسات العربية للظاهرة الإيرانية المعاصرة، نظرا لاتساع مساحة اشتباك الدور الإيراني بقوة في الشؤون العربية، ودور إيران السياسي والاستراتيجي والعسكري البارز في العراق ولبنان وسوريا وفلسطين، والدور الملحوظ مؤخرا في الساحة الإفريقية أيضا، مما يؤكد على أهمية قيام الباحثين بدراسة ومتابعة الشأن الإيراني في كافة المجالات، خاصة من قبل الباحثين المقتدرين المتجردين من أي تحيزات طائفية أو عنصرية. وتمتلك الكاتبة، التي أمضت عدة سنوات في إيران كطالبة في الدراسات العليا وحصلت على الدكتوراة في الإعلام من هناك.

إعداد: د. مازن النجار
drmazin1@gmail.com